عشرة موضوعات للحوار حول واقع الأحزاب السياسية والحياة السياسية في العراق

كاظم حبيب

(1)

تركت سياسات الحكومات المتعاقبة الاستبدادية بصماتها العميقة على شخصية الإنسان العراقي وعلى علاقاته وتصرفاته اليومية في البيت والعمل وفي المجتمع وإزاء الدولة. وكانت الظاهرة موضع دراسة وتدقيق بعض العلماء والأكاديميين في مجال العلوم الاجتماعية والنفسية والسياسية، وخاصة قبل وبعد ثورة 14 تموز 1958. وكان للأستاذ الراحل الدكتور علي الوردي دوره البارز في دراسة المجتمع العراقي ومشكلاته وتعقيدات وضعه النفسي وشخصيته المعقدة.

(2)

وفي أعقاب الثورة بفترة وجيزة وعلى امتداد أكثر من أربعة عقود واجه المجتمع العراقي أوضاعا أكثر تعقيدا وقسوة، وبدأت الثورة تفترس أبناءها وتراجع الحكم الفردي وانعزل عن الناس وترك مكانه لدكتاتورية غاشمة جاءت عبر انقلاب شباط/رمضان 1963 إلى السلطة ومارست إرهابها الوحشي ضد الشعب كله ولم تترك قومية أو جماعة دينية أو مذهبية أو فكرية إلا وعرضتها للمطاردة والاعتقال والسجن والتعذيب والموت. ثم تكررت الانقلابات وعجز الناس عن ملاحقة الأحداث والتغيرات والمشكلات المتفاقمة، وخاصة في أعقاب انقلاب تموز 1968. لم تعد الثقة والصراحة والاستقامة من الأمور الاعتيادية في المجتمع في ظل حكم البعث الثاني، إذ انتشر الوباء الأصفر، أجهزة الأمن والاستخبارات وجماعات المخبرين والانتهازيين في كل مكان يرصدون حركات الشعب وقوى المعارضة العراقية وساقوا عشرات آلاف الناس الأبرياء إلى ساحات الموت والقبور الجماعية، كما حصدت الحروب الداخلية والخارجية حصتها الكبرى من البشر، بعدها جاء الحصار الاقتصادي الدولي الظالم الذي فرضته الولايات المتحدة لينزل ضربته القاصمة بالأطفال والشيوخ والمرضى والعجزة والكادحين من الناس العراقيين. لقد استبيحت كرامة الإنسان بالكامل ومرغت هامات البشر بالتراب واستشرى الفساد وعمت الرشوة في كل مكان، واختفت الكثير من القيم والمعايير الإنسانية العامة والشاملة.

(3)

ولم تبذل الحكومات العراقية المتعاقبة على امتداد عمر الدولة العراقية الحديثة، وبعد الخروج من عهود الظلام والتخلف العثمانية، أي جهد مبرمج ومطلوب لمعالجة مشكلات التخلف الاقتصادي والاجتماعي وضعف وقلة منشآت البنية التحتية واستمر توزيع وإعادة توزيع الدخل القومي وفق أسس غير عادلة بين فئات المجتمع لصالح الأغنياء ومالكي وسائل الإنتاج، بما فيها الأرض الزراعية، مما سمح بتكريس العلاقات الإنتاجية شبه الإقطاعية سنوات طويلة وبقاء الصناعة الوطنية ضعيفة وقاصرة عن الإيفاء بحاجات السوق المحلي. وكان لهذا تأثيره البالغ على مستوى الأمية في البلاد ومستوى التعليم وابتعاده عن حاجات التنمية الاقتصادية والبشرية، وبقاء الوعي الاجتماعي متخلفا ومتناغما مع واقع التخلف الاقتصادي وعلاقات الإنتاج السائدة. ولم يتسن لقانون الإصلاح الزراعي وقانون الأحوال الشخصية وقانون العمل وغيرها من القوانين المهمة التي أصدرتها ثورة تموز أن ترى التطبيق الفعلي لصالح الذين صدرت لمساعدتهم على مواجهة ظروف الحياة القاسية، مما أعاق عملية تحول المجتمع العراقي من مجتمع ريفي عشائري إلى مجتمع صناعي ومدني ديمقراطي متحضر.

(4)

وجدت سياسات العقود المنصرمة من الاستبداد وتغييب الديمقراطية وحقوق الإنسان والتقاليد والعادات البالية وعلاقات المجتمع الريفي شبه الإقطاعي تأثيرها المباشر على الأحزاب السياسية التي تشكلت في العراق طيلة الفترة المنصرمة، سواء أكانت أحزابا سرية أم علنية، علمانية أم دينية، وتجلت في بنيتها الفكرية والتنظيمية وفي علاقاتها الداخلية والبينية ومع الجماهير وفي ممارساتها اليومية. ومارس الانغلاق الإيديولوجي والاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة، كأيديولوجية علمانية أو دينية، دوره في تحويل تلك الإيديولوجيات إلى عقائد جامدة وإيمانية مطلقة أعاقت تطور الفكر والسياسة والممارسة لدى أعضاء مختلف الأحزاب السياسية والتفاعل الفكري والسياسي في ما بينها وعرقلت إلى حدود بعيدة إمكانية التعاون والتحالف الطويل الأمد، رغم أن بعضها كانت له علاقات واسعة مع الجماهير الشعبية، كما في حالة الحزب الشيوعي العراقي قبل ثورة الرابع عشر من تموز 1958..

(5)

وبسبب من هذا التكوين وظروفه والعلاقات الاجتماعية والسياسية التي سادت في البلاد قبل وبعد ثورة تموز دخلت الأحزاب السياسية العراقية في صراعات فكرية وسياسية غير حضارية ومهاترات كان لها أكبر الأثر على مسيرة البلاد، وخاصة في أعقاب ثورة تموز. ولعبت عوامل داخلية، إقليمية ودولية دورها البارز في زيادة تعقيد وتوتير العلاقات في ما بين تلك الأحزاب. وبرز كل ذلك في الحياة السياسية اليومية، سواء أثناء المظاهرات، أم العداء المتبادل أثناء مختلف الفعاليات أم عبر السياسات والشعارات والأهازيج الشعبية أم الفتاوى الدينية والصحافة اليومية. وعمق من هذه المشكلات أن الأحزاب السياسية عموما لم تكن تمتلك النضوج الفكري والسياسي الحضاري الكافي للارتفاع إلى مستوى الأحداث وتجاوز الخلافات لبناء عراق مدني ديمقراطي مستقل. ولست هنا في معرض توزيع الأعباء على هذا الحزب أو ذاك، إلا أن حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق والعديد من القوى القومية لعبت دورها المركزي في كل تلك الخلافات والصراعات والنزاع وتدمير الحياة السياسية العراقية وخاصة منذ الستينات حتى الوقت الحاضر. وهذا لا يعني بأي حال بأن القوى الأخرى، ومنها الحزب الشيوعي العراقي أو القوى الديمقراطية الكردية أو الأحزاب السياسية العراقية الأخرى أو قوى الإسلام السياسي لا تتحمل مسؤوليتها في هذا الصدد. فالطفولة السياسية والرغبة في الهيمنة كانت هي السيطرة على الجميع، وهي لا تزال ظاهرة لدى البعض من هذه القوى السياسية العراقية.

(6)

ومنذ اضطرار خروج قيادات مختلف الأحزاب السياسية إلى خارج الوطن أو تنقلها بين الخارج وجبال كردستان، برزت محاولات معينة ومحدودة نسبيا لدى بعض الأحزاب السياسية العلمانية والدينية إلى التحرر من قيود الماضي والعلاقات المتوترة السابقة في صف المعارضة العراقية، مما ساعد على قيام تحالفات بين قوى يسارية ودينية لم يكن ممكنا في ظروف أخرى. وكانت في جوهرها ظاهرة إيجابية بما في ذلك تعاونها الراهن في مجلس الحكم الانتقالي أو مع قوى أخرى خارج هذا المجلس. إلا أن الظاهرة البارزة في الوقت الحاضر تتجلى في حقيقة أن القوى السياسية التي تبنت أثناء وجودها في المعارضة السياسية وفي الخارج أثناء حواراتها وفي صحافتها مسائل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان لم يعد لها أي صدى فعلي في ممارساتها اليومية، بل حتى أنها انقلبت عليها، وهي الإشكالية التي تهدد بنشوء النزاعات من جديد في ما بين القوى السياسية المختلفة.

(7)

يبدو مفيدا أن يشار بشكل مكثف إلى عدد من الظواهر السلبية التي كانت ولا تزال ترافق واقع الأحزاب السياسية العراقية والتي تعيق تطور هذه الأحزاب عمليا وتحول دور بعضها إلى هامش محدود الأثر في الحياة والأحداث السياسية العراقية:

1. ضعف الحياة الديمقراطية داخل الأحزاب السياسية العراقية، وإذا كان العديد من الأحزاب السياسية العلمانية قد ابتلت بهذه الظاهرة، فأن قوى الإسلام السياسي مصابة بها أكثر من غيرها في المرحلة الراهنة، وهي أشبه بخضوع كامل لما يسمى بالمرجعية الدينية تلك الأحزاب والجماعات والأفراد، وهي تذكرنا بما كانت عليه الأحزاب الشيوعية في عهد المرجعية السوفييتية أو الحزب الشيوعي السوفييتي.

2. ضعف المجاهرة والشفافية المطلوبتين بين القيادات الحزبية وقواعدها والجماهير الشعبية، سواء في كيفية رسم سياساتها أو دورها في مناقشة ما تطرحه القيادة السياسية للتنفيذ أو في رأيها بتلك السياسات.

3. تخلف الخطاب السياسي والمعالجات الفكرية والسياسية في صحف بعض الأحزاب السياسية، إذ أن من يقرأ تلك الأدبيات يجد نفسه ما يزال يعيش في فترات منصرمة لم تعد مناسبة للمرحلة الجديدة التي يمر بها العراق. وهذه الحالة نجدها بشكل خاص لدى أحزاب الإسلام السياسي، إذ أن خطابها يعود أحيانا إلى قرون خلت، ولكن الأحزاب السياسية العلمانية لم تتخلص من ذلك أيضا، وهي ما تزال تذكر بضياع البوصلة المطلوبة لدى بعض القوى السياسية.

4. الابتعاد عن ممارسة النقد البناء والموضوعي في ما بين الأحزاب السياسية العراقية، وخاصة عند نشوء تحالف في ما بينها، إذ أن أي نقد لأحدها يعتبر وكأنه إساءة له وتجاوزا عليه، في حين لا بد من ممارسة النقد لتحقيق التفاعل المتبادل. فالنقد لا يعني تناول القضايا السلبية، بل يعني تناول الجانبين، وفي حالات معينة يقتصر على جانب واحد وفق الحالة التي يراد معالجتها لدى حزب آخر. ومارس بعضها ولا يزال يمارس أسلوب المهاترات، سواء ما ينشر على مواقع وصفحات الإنترنيت أو في غيرها، إذ كان ينبغي لها أن تكون من مخلفات الماضي. إن النقد الموضوعي والبناء مطلوب جدا في هذه المرحلة بالذات من حياة الشعب، وغير المطلوب هو الشتائم والمهاترات والإساءات لكرامة الناس والأحزاب. إن هذه الظاهرة سلبية جدا وتعيق تطور الأحزاب كافة من الناحيتين الفكرية والسياسية أو العمل الجماهيري وتؤثر سلبا على إمكانية إجراء حوارات ديمقراطية مفتوحة وحضارية.

5. إن الحصول على العضوية في هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب السياسية تحول لدى مجموعة غير قليلة منها إلى بطاقة مرور إلى مختلف الوظائف والمراكز الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني، وبدأ الإغفال الفعلي للعناصر الديمقراطية المستقلة أو تلك العناصر التي لا موقع لها في السلطة، إذ أن معيار الكفاءة لا يعمل في مثل هذه الحالات، بل الولاء الحزبي أو المذهبي أو القرابة. ويمكن للمتتبع أن يقدم نماذج غير قليلة على هذه الحقيقة في الوضع القائم في العراق، وليس في فترة البعث وحدها. وقد كتب الكثير عن هذه الظاهرة التي يطلق عليها في العراق الحزبية الضيقة وظاهرة المحسوبية والمنسوبية. وهذه الظاهرة معروفة في كردستان العراق على نطاق واسع أيضا. والناس تشكو منها كثيرا، وقد تسنى لي الحديث عنها مع عدد من الأخوة المسؤولين في الحزبين الحاكمين في كردستان العراق في ربيع عام 2002.

(8)

إن الأحزاب السياسية العراقية التي ناضلت ضد نظام الدكتاتورية والإرهاب وضد الدكتاتور المخلوع قدمت الكثير من التضحيات، وكان بعضها رفيع الهمة في نضاله، ولكنها جميعا عجزت مع ذلك عن تحقيق النصر على النظام الدموي، مما جعل البعض منها يطلب الدعم من القوى الخارجية التي أطاحت بالنظام واحتلت العراق. وهي إشكالية ليست صغيرة، خاصة وأن الولايات المتحدة شنت حربها لا حبا في سواد عيون العراقيين بل سعيا وراء مصالحها وتحقيق استراتيجيتها ذات المدى البعيد. وبالتالي لا بد من ممارسة النقد للسياسات التي تمارسها قوات الاحتلال في العراق بسبب الأخطاء الفادحة التي ترتكبها يوميا، إذ لا يجوز السكوت عنها بأي حال. إن الموت المتواصل لمزيد من العراقيين هو أحد مظاهر تداعيات الحرب التي نبهنا إليها والتي كان يفترض أخذ الإجراءات الكافية لمواجهتها منذ البدء والتعاون مع الشعب لكسر هذه الحلقة المفرغة من الإرهاب المستديم منذ أكثر من عشرة شهور.

(9)

إن الكثير من الدلائل اليومية التي يلتقطها كل إنسان متتبع للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية الجارية في العراق يمكن أن يؤكد بأن الشعب العراقي مقبل على فترة ساخنة ومثيرة لمزيد من الصراعات والنزاعات الداخلية، إذ أن بعض قوى الإسلام السياسي، التي كنا نسميها بالمعتدلة وذات نزعات ديمقراطية، تعتقد بأن تشديد الصراع مع القوى الديمقراطية العلمانية في المرحلة الراهنة سيكون في مصلحتها ويدفع بالأمور إلى الوجهة التي تريدها، وهي تنسى بذلك العوامل التي دفعت الولايات المتحدة إلى القيام بالحرب ضد النظام الاستبدادي في العراق. فقد بدأت تحرك بعض المرجعيات العلمية التي لم تتدخل بالسياسة طيلة فترة حكم البعث ونأت بنفسها عن المشكلات التي تؤدي إلى خلق مشكلات جديدة، أن تزجها في الصراع الجاري حاليا حول العديد من القضايا، وبشكل خاص الموقف من الانتخابات. ولهذا أخذت بفتل عضلاتها وإبرازها مستندة في ذلك إلى الروح العشائرية والاتجاهات الدينية التي برزت في حياة العراقيين نتيجة ظلم وقهر وقمع النظام المخلوع، وأنها ستحاول استخدام الشارع لفرض ما تريد. وقد بدا هذا واضحا من تحريك المظاهرات للمناداة بالانتخابات العاجلة وفق ما اقترحه سماحة السيد السيستاني. وحسب تصريحات بعض الشخصيات السياسية الدينية التي شاركت في نشاط منظمات حقوق الإنسان وتحدثت عن الديمقراطية، بأن الإسلاميين إذا ما تحققت لهم أغلبية ما فسيقيمون نظاما إسلاميا مماثلا لما هو قائم في إيران! وعلينا أن نتصور كيف سيكون عليه الوضع في العراق عندما تسنح الفرصة لهذه القوى أن تهيمن على السلطة في العراق عندها تغيب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ويبقى الحق للفكر الديني السياسي وتمنع بقية الأحزاب من المشاركة في الانتخابات تماما كما يجري اليوم في إيران. إنها بذلك تريد أن تعجل بتأجيج التناقضات والصراعات بدلا من التعلم من دروس الماضي البعيد والقريب.

(10)

إن الأحزاب السياسية العراقية، وخاصة الديمقراطية منها، بحاجة ماسة إلى رؤية جديدة وجريئة لواقع العراق الراهن وإلى تغيير فعلي في بنية هذه الأحزاب والكثير من أفكارها وأساليب عملها وطرق إعلامها وإلى انتهاج الكثير من الديمقراطية والشفافية والمجاهرة في نشاطها وعلاقاتها مع المجتمع. إنها بحاجة إلى تجديد مستمر والتزام قواعد عمل جديدة تحكم عملها التنظيمي ودورات عمل قياداتها وسبل التجديد المتواصل لكل دورتين فيها... إنها بحاجة إلى معالجة المشكلات اليومية بحس شعبي شبابي جديد يرفع من مستوى الطرح بدلا من الانجرار وراء شعارات غير مناسبة ومضرة. إن القوى الديمقراطية العراقية بحاجة ماسة إلى خطاب سياسي ناضج وصادق وصارم جديد في موقفه إزاء مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ورفض كل شكل من أشكال الهيمنة وفرض الرأي الواحد والانتقاص من حقوق المرأة وحريتها واستقلالها. إنها بحاجة ماسة على إعادة النظر في الكثير من تصوراتها إزاء المجتمع بعد أربعة قرون من التخريب في الروح والعقل والنفس العراقية. لهذا يفترض أن تؤخذ كل هذه الأمور بنظر الاعتبار ويحسب لها الحساب العقلاني. إن التعاون والتحالف بين القوى الديمقراطية العراقية هما الضمانة الفعلية لمواجهة تحديات المستقبل ومن أجل بناء عراق مدني ديمقراطي فيدرالي مستقل ومزدهر.

الحرية هي العقل ولا عقل لمن لا حرية له، ما قيمة عقلي اذا لم يكن في استطاعتي ان اهتدي به؟ واذا لم يتوفر لي ذلك فسأسير على الطريق الذي يختطه لي الحاكم؟ وبعبارة اخرى فلنقل: العقل والحرية وجهان لشيء واحد، لذا يقول جون ستيوارت مل: (ان الضرر الناجم على اسكات التعبير عن الرأي يعني اننا نسرق الجنس البشري كله، نسرق الاجيال القادمة والجيل الحاضر نسرق الذين يخالفون الرأي اكثر من الذين يوافقون عليه، ذلك لان هذا الرأي ان كان صواباً فقد حرمنا هذه الاجيال من فرصة استبدال الحق بالباطل وان كان خطأً فقد حرمناهم ايضاً من نفع عظيم واعني به الادراك الاكثر وضوحاً للحق والتمكن منه عندما يصطدم بالخطأ....) (النص في كتاب الطاغية للدكتور امام عبد الفتاح امام ص294).

آراء ذبحت اصحابها

د. حامد ناصر الظالمي

واذا ما اتجهنا الى الوضع العربي نجد ان قافلة شهداء الرأي طويلة ومستمرة ولم تتوقف، فالقافلة التي بدأت مع معبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم والحلاج والسهروردي المقتول باح السر الودع بقوله:

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح

وتستمر القافلة ويلتحق بها ابن رشد الذي احرقت كتبه امام عينه وصادروا اكل حقوقه، وكذلك الحال مع لسان الدين بن الخطيب والطبري الذي لم يكتب الكثير عن الحلاج لانه انشغل بمحنته الشخصية (فقد كان هو الاخر ضحية ارهاب فكري من نوع آخر قاده الرعاع الذين حاصروا ابيته واتهموه بالالحاد) (الكامل لابن الاثير ص49) والسبب في دفاعه عن الشيخ ابن حنبل وقال انه محدث وليس فقيها، ومات الطبري فشاغبت العامة ومنعت دفنه نهارا فاعيد الى داره ودفن ليلاً في باحة منزله (ينظر كتاب آباء الحداثة العربية محيي الدين اللاذقي ص72)، ولكن الغزالي رفعوه على الاكتاف لانه كتب عن الغيب والكشف والغنوص ولم يسجل لنا سطرا واحدا عن حال القدس الشريف الذي عاش فيه اثني عشر عاما في ظل الاحتلال الصليبي له، وكان مشغولا بما وراء الطبيعة ولا بأس ان ينسى الدنيا ولا يكترث بالحياة (رؤية تاريخية 22) ويتكرر الحال مع ابن خلدون ويرفع على الرؤوس هذه المرة برغم انزوائه في قلعة ابن سلامة معتزلاً السياسة بعد ان فشل فيها مستلهما من التاريخ الدروس والعبر نجده يكتب مقدمته تحت وطأة (ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة للهجرة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم، وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا، من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها واوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها، وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل والعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن.. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة)، وعلى الطرف الآخر نجد كوندرسيه 1743-1794م على الرغم من اعتزاله "في فندق صغير خارج باريس هربا" من السياسة، سياسة الطاغية روبسبير نجده يفكر في الحاضر والمستقبل بوحي الثورة الفرنسية التي عاشها من داخلها.... وهو يعلن انه ليس ثمة حدود مرسومة لتقدم الملكات الانسانية لانه لاحد على الاطلاق لقبول الانسان الكامل وبما انه ليس ثمة قوة اعلى من الكمال فان مسيرة الانسان نحو الكمال لن تعرف حداً ولا نهاية الا مع اختفاء الكرة الارضية... وسيأتي زمن لن تشرق فيه الشمس الا على الامم الحرة وحدها اذ لن يكون هناك غيرها من الامم التي لا تعترف بسيد آخر غير عقلها ولا يجد الطغاة ولا العبيد ولا الكهنة واتباعهم الاغبياء الناطقون أي مكان لهم، اللهم الا على صفحات التأريخ. وخشبة المسرح) (كتاب اشكالية الفكر العربي المعاصر د. محمد عابد الجابري ص117)، ثورة كوندرسيه لم تكن الا على المزيفين من رجال الكنيسة القروسطية وهو نفس الموقف الذي تخذه احمد بن فارس الشدياق عندما صب (جام غضبه الادبي على الطائفية وصراع الاديان والانغلاق الاجتماعي والقومي والثقافي واعتبر تدريس الثور على العمل (الحراثة) انفع من تدريس حبريين واستغرب من مواقف رجال الدين (آنذاك أي في القرن التاسع عشر) الذين ينفقون اموالا "طائلة على الأدب دون ان يطبعوا كتابا" في اللغة والادب) (النهضة العربية ووعي الذات ميثم الجنابي 29) وهكذا ينسجم الحال مع احدى الحركات الارهابية (كالقاعدة) التي تتخذ من الدين ستراً "لعيوبها فقد اصابني الذهول يوم قرأت ان رجال هذه الحركة امروا اصحاب المواشي بتغطية عورات البقر، الم يتذكر هؤلاء ان هذه الدواب كانت موجودة في عصر الانبياء ولم يأت على انهائهم مثل هذا العمل في يوم من الايام.... على مثل هؤلاء كان الكواكبي يتكلم في طبائع الاستبداد ولكن السم اسكته سنة (1902) وبعد وفاته بيوم واحد قامت الشرطة السرية للسلطان عبد الحميد بمصادرة مؤلفاته ولكن ابنه الكبير كاظم استطاع تهريب نسخة من هذا الكتاب القيم. كان الكواكبي يتخوف ان ينشر باسمه، فمثلا كتابه ام القرى كان قد نشره باسم مستعار هو السيد الفراتي. هكذا ذبحت آراء الكواكبي صاحبها.

لم يكن الكواكبي نهاية المأساة فعلي عبد الرزاق المرشح الجديد للذبح (اعني هذه المرة) بعد عشرين سنة فعندما قام الكماليون بالفصل بين السلطة والخلافة وقاموا بالغاء منصب الخلافة كليا وأراد الملك فؤاد ارتقاء عرش الخلافة استغلالا للوضع وأيده محمد رضا صاحب الخلافة او الامامة العظمى فقد وقف الشيخ علي عبد الرازق ضد ذلك فطرح رأيه في الموضوع بكتابه (الاسلام واصول الحكم) فاقام الازهر عليه محكمة فصلته من منصب القضاء وحرمته من القابه العلمية وسحبت شهادته. من ذلك الوقت كان الصراع محتدما بين طه حسين وآخرين حول كتابة (الشعر الجاهلي) وقاد هذه الحركة مصطفى صادق الرافعي وانتهت بتدخل الازهر فتم عزل طه حسين من التدريس في الجامعة وتحول الامر (كما يقول عزيز العظمة في كتابه العلمانية ص232) الى موضوع أدبي فكتب عبد الحليم العسكري سنة (1927) رواية (سعاد) التي جسدت تلك القضية. وهكذا انتشرت الافكار المؤيدة لطه حسين وظهرت منشورات ومجلات تؤيد طروحاته وتدعو لحرية الفكر كمجلة المقتطف والهلال والمجلة الجديدة سنة (1929)-(1942) لسلامة موسى ومجلة العصور (1927-1931) لاسماعيل مظهر. وكرد فعل عنيف أسس فؤاد صروف وسلامة موسى مجمعا ثقافيا هو (المجمع المصري للثقافة

حلب لسن سامي الكيالي ومحمد كامل عياد وجميل صليبا وادمون رباط عام (1921) مجلة الحديث ثم تأسست في دمشق مجلة الطليعة عام (1935) (وهي اول مجلة ذات توجه ماركسي) ومن كتابها (احسان الجابري وجميل صليبا وقسطنطين رزيق وأمين الريحاني جبر انيل جبور ومن محرريها رئيف خوري) يتبين لنا من ذلك أن ضغط احد الاتجاهين على الآخر يولد تعصبا" وتماديا" وأصرارا" من الطرف المقابل، فحملة التكفير التي مارسها البعض ضد الشاعر (احمد زكي ابو شادي) وطه حسين وعلي عبد الرازق قد ولدت ضغطا "لا يستهان به، ولكن رجلاً كزكي الأرسوزي (كما يقول عزيز العظمة المصدر السابق ص259) يدرس طلابه افكار نيتشه وسبنغلر وبرغسون وفخته وغيرها من الافكار) يستقطب تجاهات عديدة لان اللاعقلانية التي شجع عليها تفيد في تخدير العقول.

وتستمر عملية الذبح وهذه المرة حقيقية مع نجيب محفوظ الذي كتب اولاد حارتنا وارخ فيها للبشرية منذ آدم (أدهم) وحتى عصر النهضة (عرفة) فمنع مع الازهر تداول هذه الرواية وبعد ثلاثين سنة من كتابته لتلك الرواية تعرض نجيب محفوظ لمحاولة اغتيال قام بها شخصان، (الاول محمد ناجي محمد مصطفى الذي اعترف بانه لم يقرأ أي كتاب لمحفوظ ولكنه اعتمد على فتوى وزعت في بيان خاص من أمير الجماعة الاسلامية الشيخ عمر عبد الرحمن عام (1990) وقال انه اختار نجيب محفوظ لانه بعد حصوله على جائزة نوبل أصبح رمزا" لفئة مفسدة وتنفيذ أية عملية ضده سيكون لها اثر على باقي الكتاب ويكون عبرة لهم حتى لا يسلكوا طريقه، والمتهم الثاني قال انه استند الى فتاوى من السعودية صدرت على سلمان رشدي فقال انه من الاولى إهدار دم نجيب محفوظ لانه استهزأ بالله والانبياء) (بحث، صورة الآخر المختلفة فكريا" سوسيولوجية الاختلاف والتعصب حيدر ابراهيم علي ضمن كتاب صورة الآخر ص125) ومن المعروف ان عملية الطعن كانت في رقبة نجيب محفوظ.

ويستمر الصراع وتصدر ليلى بلبعكي روايتها (سفينة حنان الى القمر) وتصادر تلك الرواية في لبنان ويتعرض السيد محمود القمني الذي قدم مجموعة قيمة من الدراسات النقدية للتراث الى غضب بعض الجهات هددت المؤلف والناشر بالتصفية. وتعرض كتاب الدكتور لويس عوض "مقدمة في فقه اللغة العربية" للمصادرة بعد ان قدم الازهر طلبا" الى المحكمة لاصدار حكم المنع على الكتاب لان المؤلف اتخذ الموقف الاعتزالي في اللغة وانه كان متأثرا بالقاضي عبد الجبار، وبعد مصادرة هذا الكتاب القيم جدا" - والذي طالعته- توفي الدكتور لويس عوض على اثر ذلك.

وقامت جامعة الازهر بتأديب احد اساتذتها وهو متخصص بالادب الاسباني لانه ترجم رواية لفارغاس يوزا اورأت تلك الجامعة أن الرواية مفسدة لاخلاق الناس، وضد الاديب علاء الدين حامد اصدر الازهر دعوى بالتكفير لانه كما قيل يسخر من الاديان السماوية وادخل السجن بسبب قصته (مسافة في عقل رجل)، ولكن الشيخ عبد الحميد بخيت لم يسخر من الاديان عندما اضطهده الازهر، ولم يكن الشيخ عبد المتعال الصعيدي مؤلف كتاب (السياسة الاسلامية في عهد النبوة) مارقا "او زنديقا" كي يتم نقله من التدريس في الازهر الى مكان آخر. ولكن كل الذي رآه ان أمر الحدود الاسلامية للندب لا للوجوب وانها تأريخية لاتقتضي التكرار (وهو اجتهاد من رجل).

وهل كان خالد محمد خالد مجرما، عندما الف كتابة (من هنا نبدأ) الذي تناوبت الشرطة والازهر والحاكم على منع تداوله وقررت لجنة الفتوى في الازهر ان الكتاب وضعه المؤلف بروح تعادي الدين، والامر في الحقيقة نقد لسياسة بعض رجال الدين الذين يتفردون ويستبدون بالسلطة ويمارسون سلطة كهنوتية قاسية ضد الناس. وفي هذا المجال أي الدراسات الدينية لا ننسى الحملة التي تعرض لها محمد احمد خلف الله حول كتابه القصص القرآني لأنه درس القصة القرآنية من وجهة نظر مدرسة الشيخ محمد عبده التي ترى بأن القصة القرآنية، تمثل العظة والاعتبار وان الكاتب كان يستشهد بتفسير المنار وهكذا فليس غريبا" ان يكون محمد عبده نفسه هو ضحية تعصب زملائه في الازهر عندما قضى سنوات عدة في المنافي فطبيعي ان يتكرر الحال مع تلامذته واتباعه".

وهذا الامر ليس بغريب، الم يتعذب السيد محمد باقر الصدر من محاوريه ليعدم في النهاية، الم يتكرر الحال مع السيد محمد الصدر والسيد الخميني لأنهما قدما طروحات جديدة لم تعجب بعض المحيطين بهما.

بالامس القريب كان الشيخ عبد الله العلايلي على مقصلة التكفير بسبب كتابه (اين الخطأ) الذي قدم فيه طروحات جديدة تتعلق بالزكاة والزواج والطلاق، واحتوى الكتاب على مقالة هزت عروش الآخرين كان عنوانها (أطوطميون انتم أم فقهاء)

كانت المقصلة قاتلة مع الدكتور فرج فودة مؤلف كتاب (قبل السقوط حوار هادئ حول تطبيق الشريعة الاسلامية) الصادر سنة (1987) الذي تم اغتياله في القاهرة، أما المستشار محمد سعيد العشماوي الذي ألف خمسة كتب عن الاسلام السياسي فلم يسعفه الا تدخل رئيس جمهورية مصر في قضيته، والرئيس السوداني جعفر نميري اعدم المفكر الشيخ محمود محمد طه، وقتل آخرون الباحث حمود صالح العودي في اليمن، وصادر الازهر في اواسط التسعينيات كتاب (الجذور التأريخية للشريعة الاسلامية) للدكتور خليل عبد الكريم الصادر عن دار سيناء للنشر، وهاجم آخرون الاديبة الاردنية زليخة ابو ريشة في الصحف ومن على المنابر لكتاباتها الجريئة. ولكن نوال السعداوي لم تكن مثل زليخة عندما اعتقلها نظام السادات قبيل اغتياله بشهر واحد مع اكثر من الف وستمائة كاتب وسياسي بل كتبت تلك التجربة التي عاشتها بعد ان افرج عنها حسني مبارك الرئيس المصري. ولم تكن السعداوي الوحيدة التي سجلت مذكراتها بل الاديب فؤاد حجازي الذي سجل تجربته المريرة في الملاحقة والسجن في روايته "سجناء لكل العصور" وصدرت عام 1987.

اثناء تلك التجارب المريرة وسقوط من يسقط يتراجع آخرون عن مواقفهم ويتعرضون لانقلاب فكري وموقفي فيتحولون الى الجهة المقابلة والعكس صحيح.

المشهد الثقافي العراقي ليس بعيداً "عن ذلك فالاستاذ مطر في كتابه (الذات الجريحة) يكشف عن تلك العلاقة المخيفة بين السياسي والمثقف ويرى "ان قرون الحقبة المظلمة واجيال التجارب الدامية عملت فينا الخوف من التفكير والابداع في رؤية الواقع، وتعلمنا ان نستخدم خيالنا وحسنا النقدي المتمرد في مجالات الشعر والفن وتفاصيل الحياة الحسية والروحية الا في الواقع السياسي- الاجتماعي" وهكذا لم ننجز كما يقول في العراق ما انجزه باحث متخصص واحد هو الباحث الفلسطيني- الامريكي (حنا بطاطو) عن تاريخ العراق السياسي والاجتماعي وفي معظم الاحيان يتبرع اشقاؤنا الشاميون بالكتابة عنا. ويأتي الاستاذ سليم مطر بمثال على ذلك وهو حزب البعث (وان كنت لا اتفق معه فيه لان حزب البعث مثال فاشل) فيقول على الرغم من استحواذه على الدولة وعلى المليارات والمؤسسات الاعلامية والايديولوجية لم يستطع تكوين نصف مفكر عراقي بعثي بمستوى المفكرين البعثيين من البلدان الاخرى فمنيف الرزاز أردني (لم ينج من الاعدام) والياس فرح لبناني وميشيل عفلق سوري ويأتي بمثال آخر ويشمل هذه المرة السياسيين" ان العراقيين الذين كانوا خارج العراق فيقول "اين هي تلك الاموال الطائلة التي يمتلكها السياسيين والتي لم تستثمر حتى باصدار كتاب واحد؟ هل فكرت المعارضة العراقية (هذا الكلام قبل سقوط صدام) يوما" بان تمنح جزءا" من هذه الملايين لتلك الاسهامات الثقافية الشجاعة التي تخدم القضية العراقية مايفوق نشاط عدة احزاب مجتمعة مثل مجلات (الاغتراب الادبي، اللف، الجمل في المانيا والمدى في قبرص) وغيرها من الاسهامات الفردية والجريئة في انحاء المهجر العراقي التي تعاني الفقر والكساد، من حق المثقف العراقي ان يستغرب هذا الاستخفاف والتجاهل لكفاحه اليومي من اجل ان يظل شريفا ومبدعا بنفس الوقت، (المثقف العراقي يقتطع من مصدر عيشته لينجز مشروعه الثقافي ولا يسمع من السياسيين سوى الخطب وبيانات الاتحاد والانشقاق والعملية المسلحة) (الذات الجريحة ص356) هذا الكلام لا ينفرد به سليم مطر بل يشاركه حنان جاسم حلاوي في ذلك اذ يقول (لم يتعلم السياسيون العراقيون في البيئة التي أعيشها فنون الديمقراطية برغم عيشهم سنيناً طويلة في اعرق البلدان ديمقراطية في العالم لا لشيء، الا لانهم حملوا اصنامهم معهم حين غادروا ابلدهم مسرورين بعبوديتهم لها الى الابد ومرة أخرى متى كان للمثقف العراقي صوت مؤثر على قرارات الاحزاب والحكام؟ نعم في حالة واحدة حين تصبح له قيمة سياسية تضاف الى مصلحة سياسية..) (مثقفون ومواقف مجلة الثقافة الجديدة ص17) وهكذا نعود لاشكالية السياسة والمثقف.

فهم السياسي داخل العراق لم يعط مجالا" للثقافة الابداعية كما يقول (حسين كركوش) بل كما هما "عسكريا" يهتم بمجال التسلح ويأتمر الباحثون فيه بأمر أميين كحسين كامل وعلي المجيد، وخارج العراق هم من نوع آخر لذا (لم يشهد العراق طوال تلك الفترة ولادة حركة ثقافية بارزة كما حدث في الخمسينيات او الستينيات ولم يولد عالم اجتماع يعتد به كالدكتور علي الوردي ولا مؤرخ بارز كالحسني او الدكتور عبد العزيز الدوري ولا سياسي يجتهد لشيء جديد كالجادرجي او عبد الفتاح ابراهيم ولا لحركة مسرحية تجديدية تشكيلية مغايرة ولا فنان بارز كالقبنجي) (مثقفون ومواقف الثقافة الجديدة ص 21) ولا فنان كجواد سليم ولا مؤرخ كأحمد سوسة وطه باقر وجواد علي ولا شاعر كالجواهري.